كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 03 بعنوان:

" التجريب في السينما الفرنسية الصامتة"

على الرغم من الجهود الرائدة التي قدّمها نخبة من أوائل صُنّاع الفيلم الفرنسي، أمثال الإخوة لوميير، وجورج ميليس، وماكس ليندر، وجاك فدير، وروني كلير، وأبل جانس، ولويس فويلاد، فإن النظرية الواقعية في السينما كما جسّدها الأخوان أوغست ولويس لوميير (Auguste et Louis Lumière)عُدّت تجسيدا حيّا لفكرة تصوير الحياة كما هي، بعيدا عن التكلّف أو الاصطناع. فقد قامت مبادئهم الجمالية على استلهام الواقع المعيش الذي تتحرك ضمنه الأحداث. ولهذا يرى المنظّر الفرنسي أندريه بازان (André Bazin)أن الواقع السينمائي ليس في مادة الموضوع أو في التعبير ذاته، بل في "واقع المكان الذي بدونه لن تكون الصورة المتحركة سينما."

ورغم المنافسة الشديدة في ميدان الإنتاج والعرض والتوزيع بين الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية، ظل المنتجون الفرنسيون في طليعة المبتكرين على المستوى الأسلوبي والجمالي، مهيمنين على

السوقين المحلي والعالمي. وقد اقترن هذا التميز بإنجازات الإخوة لوميير الذين نظموا أول عرض مدفوع للأفلام المتحركة، في الثاني والعشرين من مارس سنة 1895، أمام جمعية تشجيع الصناعة الوطنية، ثم تلاه العرض الرسمي في الثامن والعشرين من ديسمبر من العام نفسه، في قاعة الصالون الهندي بمقهى الجران كافيه في باريس. تضمن العرض برنامجا مكوّنا من عشرة أفلام قصيرة، عُرضت بواسطة جهاز السينماتوغراف الذي كان يُشغّل يدويا.

أثارت هذه العروض دهشة الجمهور، إذ مثّلت لحظة ميلاد وسيلة فنية تمكّن الإنسان من الاستحواذ على الزمن واستعادته متى شاء، في صورة واقعية نابضة بالحياة. ومنذ ذلك العرض التاريخي، وُلدت السينما كفن جمالي جديد يعيد تشكيل العالم المرئي. وقد سعى الأخوان لوميير من خلال أطروحاتهما الواقعية إلى تكريس فكرة التصوير في الفضاءات الطبيعية والمشاهد الخارجية، مبرزين جمال التفاصيل اليومية والوقائع الآنية، فكانت أفلامهما انعكاسا للطبيعة والحياة كما هي.

ومن بين أبرز أعمالهما فيلم 'وصول القطار إلى محطة لاسيّوتات' (L'Arrivée d'un train à La Ciotat) الذي لا تتجاوز مدته خمسين ثانية، لكنه خلّد لحظة واقعية خالصة بكاميرا ثابتة تظهر القطار وهو يدخل المحطة والركاب ينزلون منها. كما أن فيلم 'خروج العمال من مصنع لوميير ' (La Sortie de l'usine Lumière) قدّم مشهدا توثيقيا حيا، جسّد حركة الناس اليومية ببساطة آسرة. وما ميّز هذه الأفلام هو تلك التفاصيل العرضية التي كانت تثير انتباه المشاهد، مثل حركة أوراق الشجر أو طفل يتناول إفطاره في الخلفية.

أما فيلم 'الساقي يُبلَّل' (L'Arroseur arrosé)، فيُعد من أوائل الأفلام التي حملت ملامح السرد القصصي، حيث تتتابع الأحداث في مشهد طريف يصوّر بستانيا يُفاجأ بقطع الماء عن خرطومه بسبب ولد مازح، ثم يُرشق بالماء لاحقا في لقطة تجمع بين الطرافة والبساطة والواقعية.

لقد أسّس الإخوة لوميير بذلك الاتجاه التوثيقي الواقعي الذي منح السينما الفرنسية أسبقيتها في تاريخ الفن السابع. غير أن المنافسة لم تلبث أن اشتدت بظهور المبدع 'جورج ميليس'، الذي انتقل بالسينما من

التوثيق إلى الخيال، فجمع بين الفانتازيا والمسرح مستفيدا من خبرته كساحر ومخرج مسرحي في مسرح روبير أودان بباريس. ويُعد ميليس أول من وضع قصة وسيناريو لفيلم سينمائي، وأول من استخدم الكاميرا في حركة مبتكرة، بعدما كانت ثابتة على الحامل. كما كان رائدا في استخدام الحيل السينمائية والإضاءة الصناعية، جامعا بين الفن المسرحي والسحر والدراما.

وفي عام 1908 قدّم ميليس فيلمه 'هاملت أمير الدنمارك' في تجربة صامتة عبّرت عن طموح سردي متقدم، غير أن شهرته بدأت تتراجع بعد سنة 1911 مع التحولات التي شهدتها السينما العالمية، خاصة مع صعود أفلام الغرب الأمريكي التي أنتجها إخوته في استوديوهات تكساس، ما أدى في النهاية إلى إفلاس شركته عام 1913.

في المقابل، ظهرت شركات فرنسية كبرى مثل شركة باتيه (Pathé)التي أسسها 'شارل باتيه' سنة 1896، وأسهمت في ترسيخ الهيمنة الفرنسية على سوق الإنتاج السينمائي في بداياته. وتميزت هذه الشركة بسياساتها التوسعية، إذ اشترت براءات اختراع الإخوة لوميير سنة 1902، ثم استحوذت على شركة ميليس السينمائية قبل الحرب العالمية الأولى. كما تفوقت في تصنيع المعدات الخام والأشرطة، وأنشأت استوديوهات بفينيست التي كانت من أضخم وأحدث استوديوهات تلك الحقبة. وقد اعتُبرت شركة باتيه أول مؤسسة تبنّت نموذج الاحتكار الرأسي الشامل، حيث سيطرت على حلقات الإنتاج والتوزيع والعرض معا، لتصبح بين عامي 1903 و1909 الشركة المهيمنة على الصناعة السينمائية في العالم.

المكتبة البيبليوغرافية:

*ديفيد روبنسون: تاريخ السينما العالمية 1895 / 1980 ، ترجمة: إبراهيم قنديل.

*لوي دي جانيتي، فهم السينما، تر: جعفر علي.

*جورج سادول، تاريخ السينما في العالم، تر: إبراهيم الكيلاني.